قيمة التربية

خطبة تليت في المدرسة الكلية الاميركية في بيروت وقت الاحتفال بتنصيب رئيسها

نعمة من نعم التربية الحديثة حلّت على هذا العاجز فدعجنهُ في زمرة خطباء الليلة وشرفتهُ بالمثول امامكم ليخطب في التربية ويجلي قيمتها وما هو الاَّ صوت صارخ في المنتدى فاسمعوا لهُ واعتبروا القول دون قائلهِ

اول ما جال في خاطري ان اسأل ما هي التربية وما هي الغاية من التربية وكيف يتوصل الى تلك الغاية . وعلى هذه الاسئلة الثلاثة اجيب واشرح باختصار او تطويل على ما يناسبني فان اصبت في الاجوبة عند جميعكم فقد نطقت بحقيقة راهنة لا يختلف فيها اثنان وان اصبت عند قوم واخطأت عند آخرين فقد ابديت رأياً وما اكثر الآراء والمرتئين في الدنيا . وان لم أصب عند احد فقد صففت كلاماً وازعجت كراماً وما اكثر صافّي الكلام ومزعجي الكرام

السؤال الاول — ما هي التربية — والجواب على هذا لا يقتضي الاقتباس من اقوال العلماء والفلاسفة الذين بحثوا في التربية ووضعوا لها الحدود والاقسام فان تلك الاقوال مع ما هي عليهِ من المأثرة لا تزيد كثيراً على معنى التربية البسيط المتعارَف الذي يتناولهُ المتعلمون والاميون . وهذا جلي في قولنا ربّى الشجرة او الخروف او الولد ومعنى التربية في كل ذلك (المساعدة على النمو) . فان الذي يربي الشجر او الخراف يقوم بتجهيزها بالغذاء والهواء على قدر ما توصلت اليهِ معرفتهُ في فن التربية حتى تنمو وتبلغ الغاية التي يتوخاها واذ ذاك فهي لا تطلق الاَّ على ما كان ذا حياة في عالمي النبات والحيوان اذ لا يقال ربى الحجر والخشب . فالتربية اذاً المساعدة على النمو

السؤال الثاني — ما هي الغاية من التربية والجواب على هذا ايضاً اتناولهُ من الامثلة السابقة فان مربي الشجر او الخراف او غيرها يتولى تغذيتها وخدمتها حتى يتم لها الوصول الى النماء الكامل عندما تردّ الى مربيها ومن حولهُ جزاء اتعابهِ وثمرة خدمتهِ . فالغاية اذاً من كل تربية ايصال المربى الى كمال النماء والحياة

السؤال الثالث — كيف يُتوصل الى تلك الغاية — هنا تتردد الافكار وتتضارب الخواطر ويقف الباحث موقف الحيران يصور فكراً على الورق ثم يضرب على فكر حتى يستقصي في البحث ويرجع لديهِ شيء مثل الحقيقة يعتصم بهِ ويبرزهُ الى عالم الظهور . لان تعريف التربية وغايتها قلما يتنازع فيهما انما النزاع كل النزاع في كيفية الوصول الى تلك الغاية وهذا ما يهتم بهِ علماء

التهذيب والتربية في ايامنا الحاضرة ويتجرون تقريرهُ . وعليهِ فانا اذكر خلاصة ما رجح عندي واترك تفصيلهُ حتى اجيء الى ذكر المدارس ولكم ان تقبلوهُ او تحوّروهُ او ترفضوهُ فاقول

يُتوصل الى غاية التربية بدرس طبيعة المربى وتجهيزهِ بما يناسب تلك الطبيعة من الوسائط الداخلية والخارجية ويقويها حتى تبلغ اشدها في وجهة الكمال . فينتج اذ ذاك ان كلما تركبت طبيعة المربى صعب القيام بالتربية . وعليهِ فتربية الانسان من اصعب التربيات وادقها وابعدها عن درجة الكمال لانها تتناول — هذا اذا كانت تربية حقيقية — طبائعهُ الثلاث معًا الجسدية والعقلية والادبية وتحاول التوفيق بينها فلا ترقي هذه على نفقة تلك ولا تقوّي واحدة لتضعف اخرى

والمطّلع على تاريخ التربية الباحث في شؤونها وارتقائها يرى ان الاقدمين خبطوا فيها العشواء واساؤوا تناولها وفهمها فصرفوا همهم الى تقوية الطبيعة الجسدية ولم يتنبهوا لغيرها ولا غرو فقد كان تنازع البقاء في السيادة يقضي عليهم بوجوب ذلك واستمروا كذلك احقابًا متعاقبة . ثم اخذت الطبيعة الادبية تنمو وتتقوى وتستنير بالوحي والالهام فظهرت نواهي الدين واوامرهُ واعتصم الناس بالشعائر الخارجية والطقوس التقليدية ولم تنجلِ لهم الحقائق لان عقولهم كانت مظلمة ومداركهم قاصرة وما زالوا يخلطون الاوهام والسفه والاباطيل بالحقائق حتى فتح الله على بعض ذوي الادمغة الكبيرة فابصروا شعاعًا من نور العلم وتجلت لهم بعض الحقائق الطبيعية فنطقوا بما ادركوا وخلطوا فيما نطقوا وتناول منطوقهم الخلف فزاد عليهِ وناولهُ لغيرهِ وما زالوا كذلك حتى صار المنطوق مخطوطًا ثم مطبوعًا . وظهرت الفلسفة الحديثة فاصلحت تربية الطبيعة العقلية وهبَّ الاصلاح الديني فقوَّم الطبيعة الادبية وهكذا استقامت التربية على وجه مجمل لانها اصبحت تتناول طبائع الانسان الثلاث فاستقامت بذلك احوال المدنية وامتد العمران — هذا ملخص تاريخ التربية

ونرى اليوم ان البلاد التي ادركت قيمة التربية واخذت باسبابها الصحيحة واعتبرت طبائع الانسان الثلاث قد رقت في مراقي العمران الى درجة لا تدانيها فيها بلاد اخرى . والتي لم تزل ترقي طبيعة على نفقة اخرى وتنزل الاوهام منزلة الحقائق وتتبع التقليد في ذلك ولا تفسح للتربية الحقيقية مجالاً فيها قد توقف عمرانها واستولى عليها الانحطاط والمشاهَد يغني عن الشاهد هنا اقف عند هذا الحد واتناول التربية بوجه عام فاقول

التربية اول ما تكون بيتية يتولاها الوالدان او المهذبة وهي اساس التربية المدرسية وانجح ما تكون اذا اعتُبرت فيها فطرة الولد واميالهُ وقواهُ العقلية والجسدية وتكيفت على ما يوافق تلك الفطرة والاميال بحيث تقوّم اودها وتزيد في نشاطها فاذا تنبه المربي الى كل هذا ونظر باصرتهِ

الولد الصغير وبصيرته الرجل الكبير الذي سيكون منهُ ووضع نصب عينيهِ مستقبل الولد واقام على تربيتهِ لينشئهُ رجلاً نافعاً للهيئة التي يسكن فيها حاسباً اياهُ وديعة لا ملكاً يحق لهُ مطلق التصرف فيهِ — وديعة يطالبهُ بها الخالق جلَّ وعلا وتستلمها منهُ الهيئة البشرية — فعندئذٍ يبذل مجهودهُ وجل ما وصلت اليهِ معرفتهُ ويستعين بغيرهِ ايضاً ليحسن القيام بتربيتهِ وتهذيبهِ

ولعل في هذا النادي من يتبادر الى ذهنهِ الاعتراض على مقالي ان الوالد لا يحق لهُ مطلق التصرف في ولدهِ لان الولد من بركات الله على الوالد فهو ملكهُ بشرع الطبيعة والعادة . فلمثل هذا اقول اني ارى عكس ما ترى فالوالد هو للولد ومن واجباتهِ ان ينشئهُ ويربيهُ ويقيم عليهِ حتى يشب ويقوى على العمل والاستقلال عنهُ . والى مثل هذا يرى كثيرون من عقلاء الاوربيين والاميركيين فيعتبرون بقاء الولد عيالاً على ابيهِ مضرًّا بهِ وبالهيئة ولذلك فهم يتركونهُ وشأنهُ يجاهد في عالم الاعمال ليحصل رزقهُ ويقيم لنفسهِ بنفسهِ حيزًا من المكانة والاعتبار . ويتصرف الوالد باموالهِ فينفق منها في سبل الخير والنفع العام وكثيرًا مالا يورث منها لاولادهِ الاَّ النزر

هكذا ترى العجماوات جميعها تلد اولادها وتقيم على تنشئتها فتدافع عنها بحياتها ان اقتضت الحال حتى تكبر وتقوى على الاستقلال عنها فلا تعود تعرفها . ومن هذه الحقيقة الطبيعية العامة انتقل الى النقطة المهمة في خطابي الليلة وهي ان التربية الصحيحة هي ما انشأت في المربى القوى والصفات والاخلاق والعوائد التي تدفع بهِ الى العالم البشري رجلاً عالمًا عاملاً امينًا عارفًا نفسهُ محترمًا حقوقهُ حتى يتمكن من احترام حقوق غيرهِ . وكل تربية لا ترمي الى هذه الغاية النبيلة ما هي بالتربية الصحيحة والقيمون عليها يعوزهم اصلاحها

اما التربية المدرسية فهي ايصال المعرفة الى الفرد وتدريبهُ على استخدامها والانتفاع بها . والغاية منها ان يعرف الفرد الواجب عليهِ نحو نفسهِ ونحو الخالق والمخلوق ويكون مستقيمًا في معاملاتهِ صادقًا في افكارهِ واقوالهِ — مخلوق ضعيف لا يدري من الوجود الاَّ انهُ يأكل ويشرب وينام . حيوان ناطق ذو نفس لا يشعر بمطاليبها وقوًى لا يدري كيف يديرها تسوقهُ التدابير فيدخل المدرسة ويتنشق هواءها ويغتذي بغذائها ويتناول ذرائع التهذيب والتربية فيها فينمو عقلهُ وتستنير بصيرتهُ وينفتح قلبهُ وتتسع مداركهُ ويرى ما يُرى وما لا يرى حتى يخيل انهُ اصبح كبيرًا قويًّا بالنسبة الى ما كان وصغيرًا ضعيفًا بالنسبة الى ما سيكون يخرج الى العالم ويخرط في مهامهِ فيبرهن عن علمهِ بعملهِ . في مثل هذا يظهر فضل التربية ومقدار قيمتها في من يتخرجون في المدرسة ثم يخرجون منها ليكونوا منائر حيثما حلوا . في من يعتمد عليهم

في ادارة الاعمال الخطيرة والمساعي العظيمة . في من يخلصون لوطنهم ويعملون على تعزيزه . فعليك السلام ايتها التربية الحقيقية القائمة بترقية البشر وايصالهم الى كمال الحياة وعلى ابنائك وبناتك الصادعين باوامرك المتولين تهذيب الولدان والشبان والشابات خير تحية . وانت ايها المفتش عن اصول التربية الصحيحة الدائب في جمع فروعها الراغب في استثمارها ارعني سمعك واصغ الى ما اوحتهُ اليَّ تلك التربية فلعلك تسمع ما ينطبق على مبتغاك ويحقق لك مناك . وانتِ ايتها الكلية القائمة في راس بيروت الجميلة الموقع الرافعة الى عنان السماء ابنية قلاع في القوة عرائس في الجمال . المتسعة الارجاء الغنية بالمال والرجال ما هو مأربكِ والى اية غاية ترمين؟ هل اقمتِ في بلادنا للاتجار كما فعل الكثيرون ؟ او هل طويتِ نيتك على امركة السكان كما يزعم الجاهلون او حللتِ بين اظهرنا لتشربنا كرهَ لغتنا وامتنا كما فعل آخرون ؟ كفى ايتها الملكة البهية اني اقرأ جوابك في عينيك وارى مأربك في اعمالك واستجلي غايتك في رجالك . فاعلمي اذًا انهُ مهما تقوَّل عليكِ بعض الخلق ونسبوا لك من الغايات فكل عاقل مخلص يراكِ كما انت ملكة التربية وام التهذيب ومنارة المشرق ومنبت الرجال

بقي لي ان ابين قيمة التربية المدرسية وفوائد التخرج في المدارس ولذلك القي هذا السؤال — لماذا نأتي المدرسة . هل نأتي المدرسة لغاية اذخار المعرفة والاطلاع على الحقائق التاريخية والطبيعية ؟ للحصول على الانكليزية مثلاً او الافرنسية او الالمانية فقط ؟ هل نأتي المدرسة لنرقي اذواقنا في الملبس والمأكل والمشرب والمأوى فقط ؟ هل نغدو ونروح الى المدرسة كي يقال عنا انهم ابناء مدرسة من شباب العصر ؟ هذا كل ما نرمي اليهِ ؟ اهذا كل ما يعلق على اذهاننا من التربية المدرسية ؟ ان كانت هذه غايتنا وذاك تاثير المدارس علينا فبئست الغاية غايتنا ولا حبذا المدارس القائمة بتهذيبنا

اما اذا كنا نأتي المدرسة لكي نقف على ما وصلت اليهِ معارف البشر اجمالاً — لكي نعي من تلك المعارف ما يناسب مقدرتنا العقلية والجسدية ويمكننا حسن العمل في الحياة — لكي نتدرب على الترتيب واتمام الواجب وافتداء الوقت — لكي تعود حب المطالعة والبحث على كل ما سما قدرهُ وحسن ذكرهُ — فعندئذٍ نكون قد عرفنا قيمة التربية ونهجنا سبلها واعتصمنا باسبابها وبتنا من اهلها واعوانها . وليت شعري كم يبلغ عدد الذين يؤمّون المدارس في بلادنا وهذه الغايات في رؤوسهم او بالاحرى كم يبلغ عدد المدارس نفسها التي تبلغ تلامذتها الى هذه الغايات ؟ هنا اقف واترك الجواب لكل سامع —

فيا ايها الآباء والامهات والاوصياء والمعلمون والمعلمات والاساتذة وارباب المدارس القائمين

بتربية صغار الحاضر وكبار المستقبل . هل ادركتم قيمة التربية البيتية والمدرسية وشعرتم بعظم المسؤولية المتعلقة بها ؟ هل عرفتم ان سعادة الامة وشقاءها في ايديكم؟ هل حسبتم بسمو مركزكم عند كل عاقل كخدام التربية وعمالها القابضين على ازمة العقول والعواطف والاخلاق والعوائد؟ ناشدتكم الله اذًا ان توسعوا حدودكم وتتناولوا من تربون بيد المحبة والامانة والصبر ولا تنظروا الى ما يربحكم في الحال وكثيرًا ما يتعبكم في المآل . بل انظروا الى صالح المربى العام — الى صالح الانسانية الكامنة فيه — الى ترقية الهيئة التي هو فرد من افرادها . عندئذٍ تتساهلون وتشدّدون وتقاصون وتكافئون فيكون مجمل اعمالكم آيلاً للخير والتهذيب وتكونون انتم في دائرة التربية القويمة . ولا تهتموا فقط بما يفعل المربى وهو تحت مراقبتكم لان هذا طرف من اطراف التربية لا يؤمن التشبث به . واياكم وان تضغطوا عليه كثيرًا لئلا تتبدل فيه صفات الشجاعة والامانة وحرية الفكر الى صفات الجبن والمخاتلة والرياء ويصبح ملاكًا حين تكون عليه الرقباء وشيطانًا حين يخلوله الجو ويأمن العيون . علموا من تربون كيف يقضون اوقات فراغهم . دربوهم على الملاحظة والاستفهام عن الغامض . عودوهم على ادراك المسؤولية التي عليهم نحو نفوسهم ونحو من حولهم ونحو خالقهم . انشئوهم حتى يدركوا ان هذه المسؤولية تكبر بكبرهم وتصغر بصغرهم وان لا نجاح بدون زيادة المسأولية . افهموهم ان كل انسان اخوهم من جبلتهم وانهُ قد يختلف عنهم بالعقيدة والعوائد وقوة الادراك ولكنهُ يبقى اخاهم في الانسانية ذا نفس خالدة وحقوق مقدسة . قولوا لهم ان الاختبار الشخصي هو الاختبار الذي يدوم وان كل من سار على الدرب وصل . لقنوهم ان البخت قد يساعد الانسان للحصول على مركز سامٍ لكنهُ قلما يساعده على البقاء فيه . وان الرزق الذي يكتسبهُ الانسان بماء جبينه هو الرزق الذي يدوم ويثمر ويجعل حياة سعيدة تكتنفها الحكمة والنزاهة والاعتدال

هذه هي اسباب التربية الحقيقية وهذه هي التربية التي تعتمدها مدرستنا الكلية . وليكن معلومًا ان الكلية لا تخرج تلامذتها وترسلهم الى العالم الفسيح ليشخصوها بالعمليات فقط بل بالآداب الصحيحة والرجولة والانسانية والتهذيب العام . لان صيت المدرسة وسمعتها الحسنة لا يتوقفان على ما يضيفهُ ابناؤها الى عالم العلم والمعرفة مثلما يتوقفان على ما يفعلون بين الناس وما يظهرونهُ من ضروب الشجاعة والامانة والاستعداد والمقدرة على العمل

هاكم الامة الفرنسوية فهي مع ما اشتهرت بهِ من العلماء والفلاسفة والصناع والمخترعين على اختلاف مناصبهم قد احست حديثًا بفساد بعض مبادئها في التربية المدرسية فنهض المسيو ديمولان احد علمائها منذ بضع سنين وانتقد مبدأ التربية في فرنسا واظهر نقائصهُ في كتابهِ سر

تقدم الامم السكسونية — ذلك الكتاب الذي قامت لهُ الخواطر وقعدت وترجم الى اشهر اللغات الاوربية حالما تداولتهُ الايدي بعد نشرهِ قد ابان فيهِ مؤلفهُ ان قيمة التربية لا تقوم فقط بكثرة المواد التي تلقى في ذهن التلميذ ولا بمقدرة الاساتذة في الفروع التي يدرسونها بل بالروح التي تبثها المدرسة في التلامذة . الروح التي تفتح قلوبهم وتنير عقولهم وتجعلهم يعتمدون على ذواتهم في تطلب المجد والرفعة وتريهم ان ليس في الوطن وحدهُ يحيا الانسان بل في كل بلد من بلدان المعمور . وان الجاه والغنى والرفعة ان كانت تتأتى للفرد في وطنهِ فأحرِ بها ان تتأتى لهُ في غير وطنهِ حيث يعتمد على نفسهِ ويتفرغ لتوخي غايتهِ

مَن كل هذا نسج الموسيو ديمولان كتابهُ ونشرهُ في طول بلادهِ وعرضها فتجاوزها الى كل البلدان المتمدنة واحدث دويًّا في الاندية العلمية لان ناسجهُ قد طرق فيهِ بابًا لم يطرقهُ احد غيرهُ من كتبة الافرنسيس إذ ابان لامتهِ انها دون الامم السكسونية في التربية المدرسية

فمن هو الموسيو ديمولان فينا الذي يقوم ويفحص مدارس بلادنا الابتدائية والثانوية والعالية الوطنية والاجنبية وينقد طرق التربية فيها فيفرز الرديء من الجيد ويحض ارباب التهذيب على نبذ الاغراض الجنسية والتعصبات المذهبية وصرف النظر في وجهة التربية القويمة التي تنشئ للامة وللوطن وللعالم باسرهِ رجالاً اشداء امناء نحو نفوسهم ونحو بني جنسهم . فاذا اردت ان تميز بين التربية القويمة والمعوجة تخالط القائمين بامر التربية وافحص عن شخصيتهم وقف على كيفية تدريسهم واطلع على الكتب التي يدرسونها والفروع التي يبسطونها لدى الطلبة . انظر كيف يعاملون المربى وباي روح يقدمون الارشاد واية غايات ينصبون قدام من يربون واي سلوك يستحسنون امزج كلما يستخدمونهُ في سبيل التربية وخضهُ ثم شمهُ وذقهُ فان كنت تستطيبهُ وتستطعم فيهِ طعم الرجولة الحقة فاعلم ان التربية قويمة ونتائجها حسنة مفيدة . والاَّ فهي مزيج من الاعمال والافكار القاصرة

واذا اردت تربية ابنك في مدرسة ما فاسأل عن المدرسة التي تنزل تلامذتها منزلة بنيها لا منزلة خدامها — المدرسة التي تنير عقول التلامذة وتفتح بصائرهم بما تلقنهم اياهُ من المعارف النافعة والفوائد الجليلة . المدرسة التي تدرب تلامذتها على العمل والرياضة البدنية وتقودهم الى المعاشرة الصالحة وتقضية ساعات الفراغ بالاشياء المفيدة — المدرسة التي تشرب بنيها روح الشجاعة الادبية والمثابرة على العمل — وخلاصة القول ضع ابنك في مدرسة ترقي فيهِ ما وهبهُ اياهُ الخالق من القوى العقلية والجسدية بحيث ينشأ لا كما شاء التعصب بل كما شاء العلم الصحيح في بحبوحة الاخاء والمساواة والحرية — والسلام

بولس الخولي